بسم الله الرحمن الرحيم

١٣ ــ سورة الرعد

سمّيت به لما فيها من قوله عز وجلّ[١] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) الدالّ على الصفات السلبية والثبوتية ، مع الإخبار عن الأمور الملكوتية ، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية ، وهذه من أعظم مقاصد القرآن ـ قاله المهايميّ .

وللسلف رأيان فى أنها مكية أو مدنية ؛ ويقال : إنها مدنيــة إلّا قوله[٢] (وَلَا يَزَالُ الذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية . ويقال : من أوّلها إلى آخر[٣] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَاناً) مدنىّ وباقيها مكىّ . والله أعلم .

وآيها ثلاث وأربعون .

(١) [١٣ / الرعد / ١٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٣) [١٣ / الرعد / ٣١] .

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓرٓ ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال أبو السعود : « الٓمٓرٓ » اسم للسورة ، ومحله: إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء، إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى « تِلْكَ » على الوجه الأول ، مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثانى، مبتدأ ثانٍ ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، فـ (تلك) مبتدأ كما إذا جعل (المر) مسروداً على نمط التعديد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى « ءَايَاتُ الْكِتَابِ » أى : الكتاب العجيب الكامل الغنىّ عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذٍ . وقوله تعالى « وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من الكتاب المذكور بكماله « الْحَقُّ » أى : الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به ، الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها. وفى التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنىّ للمفعول ، والتعرّض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من الدلالة على فخامة المنزّل التابعة لشأن جلالة المنزِل وتشريف المنزّل إليه ، والإيماء إلى وجه الخبر ـ ما لا يخفى . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

فى (الَّذِى أُنْزِلَ) وجهان : أحدها هو فى موضع رفع ، و (الْحَقُّ) خبره ، أو الخبر (مِنْ رَبِّكَ) و (الْحَقُّ) خبرُ محذوفٍ ، أو خبر بعد خبر . وثانيهما محله الجر بالعطف على (الْكِتَابِ) عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى . أو بتقدير زيادة الواو فى الصفة ، و(الْحَقُّ) خبرُ محذوفٍ ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو فى الصفات. وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق، أى الجمع والاتصال. لأنها كما تجمع المعطوف بالمعطوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة، وتفيد أنّ اتصافه به أمر ثابت. وقوله تعالى «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى(١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بقدرته رفع السموات ، أى خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه ! وقوله تعالى « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » أى أساطين . جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى « تَرَوْنَهَا » إمّا استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، كقول الشاعر : * أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ ترانى * أو صفة لـ (عَمَدٍ) جىء بها إبهاماً؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجّح ابن كثير

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

الأول وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى[١] (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والأكمل أيضاً في القدرة ! وقوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يُمَرُّ كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أي ذللهما لما أراد منهما من نفع العالم السفليّ . وقوله تعالى « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » أي لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى[٢] (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) وقد بيّن ذلك في قوله تعالى[٣] (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)[٤] والاقتصار على الشمس والقمر ، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرها . فتسخير غيرها يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرها مع غيرها في قوله تعالى[٥] (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . وقوله تعالى « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أي : أمر العالم العلويّ والسفليّ ويصرّفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال . لا يشغله شأن عن شأن . وقوله تعالى « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » يعني : الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعوته الجليلة . أي يبيّنها في كتبه المنزلة . وقوله تعالى « لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » أي : لعلكم توقنون وتصدقون بأن هذا المدبّر والمفصل ، لا بدّ لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء؛ فإن من تدبر حق التدبر ، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ، قدر على الإعادة والجزاء !

---

(١) [٢٢ / الحج / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٣٨] (٣) [٨١ / التكوير / ١] .
(٤) [٨٢ / الانفطار / ٢] . (٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

لطائف

الأولى ـ جُوِّزَ فى قوله تعالى (اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ) أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) . ورجّح فى (الكشف) الأول ، بأن قوله الآتى[1] (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ) عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات. وفى التقابل الخبرية متعينة،فكذا هذا ليتوافقا والجملة مقررة لقوله[2] (وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) . وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها . لا سيما وقد جعل صلة للموصول . وهذا أشد مناسبة للمقام ، من جعله وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبرا مفصلا ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) . فالمعنى أنه فعلها كلها لذلك .

الثانية ـ قال القاضى : قوله تعالى (رَفَعَ السَّمٰوَاتِ ... الخ) دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها فى حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضى ذلك ، لابدّ وأن يكون بمخصّص ليس بجسم ولا جسمانى ، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة ـ (يدبِّر) و (يفصِّل) يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنفان . أو الأول حال من ضمير (سخّر) والثانى من ضمير (يدبِّر) . أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة .

ولما قرر الشواهد العلوية،أردفها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته. فقال تعالى:

---

(١) [١٣ / الرعد / ٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » أى بسطها وجعلها متسعة ممتدّة فى الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطيح الأرض وأنها غير كريّة بالفعل . وأن من أثبته أراد به أنه مقتضى طبعها اورد بأنه ثبت كريّتها بأدلةٍ عقلية ، لكنه لعظم جرمها يشاهد كل قطعة وقطرٍ منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كريّتها إلّا هو تعالى .

« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى : جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه « وَأَنْهَاراً » متفجرة منها ، وذلك لتكثير النبات والأشجار وحفظ الحيوان « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » أى : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبستانىّ والجبلىّ ...

قال المهايمىّ : ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لئلا تجتمع فتضارّ متناولها فصولاً مختلفة ، إذ

« يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ » أى : يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ! فبطول الليل يحصل الشتاء ، وبطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف ، وبالآخر الربيع « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى : فى مدّ الأرض وما بعده « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ » أى لآيات باهرة لقوم يتفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لا بدّ له من قادرٍ حكيم ! أو يتفكرون فيعلمون أن تكثير النعم لجلب محبة المنعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبّر ذلك لمعايشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

لطائف :

الأولى ـ قال الرازىّ : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض . وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة . ثم إنها لكثرتها وقوّتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فمنفعة الجبال فى تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . فى أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال ، قرن بها ذكر الأنهار . مثل ما فى هذه الآية ، ومثل قوله (١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) .

الثانية ـ أشار الرازىّ إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولًا من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم .

الثالثة ـ فى قوله (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجوّ بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أى يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً ـ بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول ـ فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشى . وعدّ هذا فى تضاعيف الآيات السفلية ، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً ـ باعتبار أن ظهوره فى الأرض ـ

(١) [٧٧ / المرسلات / ٢٧] .

فإن الليل إنما هو ظلها . وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلًا . ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها .

وقرئ (يغشّى) من التغشية ـ أفاده أبو السعود .

ثم بيّن تعالى طائفة من الآيات بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ » أى : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيّبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قادر مدبر مريد حكيم فى صنعه « وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » جمع صنو ، وهى نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفى (القاموس) النخلتان ، فما زاد فى الأصل الواحد ، كل واحدة منهما صنو . ويضمّ أو عامّ فى جميع الشجر ، وإفراد الزرع لأنه مصدر فى الأصل يشمل القليل والكثير « يُسْقَىٰ » قرئ بالتحتيّة والفوقية « بِمَاءٍ وَاحِدٍ » أى : بماء المطر أو بماء النهر « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » فتتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً . والأكل ، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو مايؤكل ، وهو هنا الثمر والحبّ . والمجرور إما ظرف لـ (نفضل) أو حال من بعضها ، أى : نفضل بعضها مأكولاً ، أو : وفيه الأكل « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى: الذى فصل « لَآيَاتٍ » على وحدانيته تعالى وباهر قدرته « لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فإن من عقل ما تقدم جزم بأن مَنْ قَدَر على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتباينة المتجاورة ، وجعلها حدائق ذات بهجة ـ قادرٌ على إعادة ما أبداه ، بل هو أهون فى القياس .

---

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

«وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» خطاب للنبيّ ﷺ ، أى : إن تعجب من شىء فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما عدّد من الآيات العجيبة التى تدل على قدرةٍ يصغر عندها كل عظيم ـ أيقن بأن مَنْ قدر على إنشائها ولم يعى بخلقها ، كانت الإعادة أهون شىء عليه وأيسره . فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب . وجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له ، أى : إن تعجب ، يا مَنْ نظر فى هذه الآيات ، وعلم قدرة مَن هذه أفعاله ، فازدد تعجباً ممن ينكر ، مع هذا ، قدرته على البعث ، وهو أهون من هذه !

قال أبو السعود : والأنسب بقوله[1] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) هو الأول و (عجب) خبر قدم على المبتدأ للقصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمراً عجيباً .

وقوله تعالى « أُولَٰئِكَ » أى المنكرون لقدرته على البعث « الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ » أى : تمادوا فى الكفر ؛ فإن من أنكر قدرته تعالى فقد أنكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً ، وفيه تكذيب لخبره ولرسله عليهم السلام «وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» أى : السلاسل فى أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلّوا أفكارهم عن النظر فى هذه الأمور كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحكيم . « وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

---

(١) [١٣ / الرعد / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية والسلامة منها ؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أنّ سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها !

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ » أى : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فمالهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التى يضرب بها المثل فى الشدة . والجملة حالية أو مستأنفة . و(المثلات) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم الثاء جمع مَثُلَة ـ كسمرة وسمرات ـ وهى العقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة كقوله (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) ، أو هى مأخوذة من المثال بمعنى القصاص . يقال : أمثلته وأقصصته بمعنى واحد ، أو هى من المثل المضروب لعظمها . وقرئ بفتح الميم وسكون الثلثة ، وهى لغة أهل الحجاز . وقرئ بضم الميم وسكون الثلثة ، وقرئ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » مِن الناس مَن حمل المغفرة على المتعارف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلا حيث دلّ الدليل على التقييد فى غير الموحِّد فإن ظلمه ـ أعنى شركه ـ لا يغفر . . وما عدا الشرك فغفرانه فى المشيئة . ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوىّ . وهو السّتر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أى : إنه ذو صفح عظيم لا يعاجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون

بالليل والنهار . كما قال سبحانه[١] : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازيّ في دعواه (إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر ، ولاستعمال القرآن . وللزومه كون الكفار كلهم مغفورا لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة) ولا يخفاك صحة تسميته مغفرة لأنها في اللغة الستر . ومن أفراده الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولاستعمال القرآن ، تحكّم بحت على أسلوب القرآن، بإرجاعه إلى ما أصّلوه . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد اللزوم وتهويل خطبه ـ فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك . لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل ، فالتلازم صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فهذه الآية في معناها كآية (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ...) الخ . فما ذكر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، فتفطّنْ ولا تكن أسير التقليد ..!

ولما بين تعالى سعة حلمه ، قرنه ببيان قوة عقابه، ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه: « وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » أي : لمن شاء ، كما قال تعالى[٢] : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) . وقال تعالى[٣]: (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال سبحانه[٤] : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٧] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٦٧] . (٤) [١٥ / الحجر / ٤٩و٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المستعجلون بالسيئة المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ، ذمًّا لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تخرّ لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدّوها من جنس الآيات وقالوا عنادا :

« لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ، أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهباً ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجاً وأنهاراً « إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ » أى : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ، وناصح كغيرك من الرسل . فما عليك إلّا البلاغ ،لا إجابة المقترحات ! « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » أى: نبيّ داعٍ إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه كقوله تعالى[١] : (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) تعريض بأنه عليه الصلاة والسلام ليس بدعاً من الرسل . فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله،عليهم السلام؛أو المعنى : لكل قوم هاد عظيم الشأن ،قادر على هدايتهم، هو الله سبحانه ، فما عليك إلّا إنذارهم لاهدايتهم . وإبقاؤهم الإيمان وصدهم عن الجحود . فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى[٢] :(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)؛ أو المعنى : (لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قائد يهديهم إلى الرشد . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى وتبصير سبله، والإنذار من الاسترسال فى مساقط الردى. وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله. وقد

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

لا يفيد إنزالها هداية ! قال تعالى (١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) (٢) مع ما يستتبع الإصرار بعدها من الأخذ بلا إمهال ! (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) (٣) .

قال الشهاب : وجوّز عطف (هادٍ) على (منذر) وجعل المتعلق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته . وقد يجعل خبر مبتدأ مقدر ، أى : وهو هادٍ ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

[٩] (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

« اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ » جملة مستأنفة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حجتهم فلعلهم يهتدون بأنه آمر مدبر عليم نافذ القدرة فعّال لما تقتضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن (الهادى) بمعنى (الداعى إلى الحق) .
وإن كان المراد به الله سبحانه ، فالجملة تفسير لقوله (هَادٍ) أو مقررة مؤكدة لذلك ـ كذا فى (العناية) .

وأشار الرازىّ إلى أن الآية : إما متصلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقتراحهم عناد وتعنت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلّا عنادًا ، فلذا لم يجابوا

---

(١) [١٧ / الإسراء/ ٥٩] .(٢) [٦ الأنعام/ ١٠٩] .(٣) [٣٣/ الأحزاب/ ٦٢] .

إليه . وإما متصلة بقوله (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ) يعنى : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ (ما) فى قوله تعالى (مَا تَحْمِلُ) مصدرية أو موصولة ، أى : حملها أو ما ما تحمله من الولد ، على أى حالة هو من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة .

« وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ » أى : تنقص من الحمل « وَمَا تَزْدَادُ » أى : تأخذه زائدًا .

قال الزمخشرىّ : ومما تنقصه الرحم وتزداده ، عدد الولد ؛ فإنها تشمل على واحد . وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة فى بطن أمه ، ومنه جسد الولد فإنه يكون تامًّا ومخدجًا . ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر . وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنه يقلّ ويكثر .

«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» أى : بقدرٍ وحدٍّ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى [(١)] : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقوله [(٢)] (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وذلك أنه تعالى خص كل مكوّن بوقت وحال معينين ، وهيأ لوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضى ذلك :

« عَالِمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن الحس « وَالشَّهَادَةِ » أى ما شهده الحس «الْكَبِيرُ» أى العظيم الشأن الذى كل شىء دونه « الْمُتَعَالِ » أى المستعلى على كل شىء بقدرته . أو المنزّه عن صفات المخلوقين ، المتعالى عنها .

وأكثر القرّاء على حذف ياء (الْمُتَعَالِ) تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها فيهما على الأصل .

---

(١) [٥٤ / القمر / ٤٩] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

« سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ » أى فى نفسه « وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » أى لغيره « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ » أى: طالب الخفاء فى مختبأ بالليل فى ظلمته « وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أى : ذاهب فى سربه ، أى فى طريقه يبصره كل أحد .

لطيفة :

قيل : إن (سواء) بمعنى الاستواء وهو يقتضى ذكر شيئين ، وهنا إذا كان (سارب) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ، يكون شيئاً واحداً .

وأجيب عنه بوجهين : (الأول) أن (سارب) معطوف على (من هو)لا على (مستخفٍ) كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . و (الثانى) أنه عطف على (مستخف) . إلا أن (من) فى معنى الاثنين كقوله[١] :

* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِئْبُ يَصْطَحِبَان *

كأنه قيل : سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين (من) موصوفة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق الكل .

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية؛ والمعنى: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار . وحذفُ الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع . خصوصاً وقد

(١) البيت ، يخاطب فيه الذئب :

تَعشَّ . فإن واثقتَنِى لا تخُوننى   نَكُنْ مِثلَ مَنْ ، ياذئبُ ، يَصْطَحِبَانِ

وقائله الفرزدق من قصيدته التى مطلعها :

وأطلَسَ عَسَّالٍ وما كان صاحباً   دعوتُ بنارى مَوْهِناً فأتانِى

تكرر الموصول فى الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى[1] (وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ)
والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلّا كان حرف النفى دخيلًا فى غير موضعه . لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة فى صلة الأول بواسطة العاطف ، لم يكن للنفى موقع ؛ وإنما صحب فى الأول الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضى الله عنه[2] :

فَمَنْ يَهْجُو رسول اللهِ منكم ويمدحُهُ وينصره سَواء !

أى : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر فى (الانتصاف) وهو وجيه جدًّا . وأما تضعيف غيره له ، بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً ، وأن النحاة ، وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن اجتماعهما منكر ـ فهو المنكر . لأن أسلوب التنزيل هو الحجة ، وإليه التحاكم فى كل فنٍّ ومحجّة ، والجمود على القواعد ورد ما خالفها ، إليها ـ من التعصّب واللجاج ، والغفلة عن مقام التنزيل فى الاحتجاج !

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

« لَهُ مُعَقِّبَاتٌ » أى : لمن أسرّ أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٢) من قصيدته التى يهجو بها أبا سفيان . ومطلعها :

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجواءُ إلى عذراءَ منزلُها خَلاءُ

ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق وعذراء : موضع على بريد من دمشق .

« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى من جوانبه كلها ، أو من أعماله ، ما قدم وأخر « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ » أى : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتى من عمل ، خيراً أو شرًّا ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . فـ (من) تعليلية أو بمعنى باء السببيّة . ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفى (الصحيح)(١) : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلّون .

وفى الحديث الآخر(٢) : إن معكم من لا يفارقكم إلّا عند الخلاء ، وعند الجماع . فاستحيوهم وأكرموهم !

و (المعقبات) جمع معقبة من (عقّب) مبالغة فى (عقَب) فالتفعيل للمبالغة والزيادة فى التعقيب فهو تكثير للفعل أو الفاعل ، لا للتعدية . لأن ثلاثيّه متعدّ بنفسه . وأصل معنى (العقب) مؤخر الرِّجْل . ثم تجوّز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة . كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب : عقبه إذا تلاه . نحو دَبَرَهُ وَقَفَاهُ . وقيل : هو من (اعتقب) أدغمت التاء فى القاف ؛ وردّوه بأن التاء لا تدغم فى القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف : إن القاف والكاف ، كل منهما يدغم فى الآخر ولا يدغمان فى غيرهما . والتاء فى (معقبة) واحدة (المعقبات) للمبالغة لا للتأنيث ، لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر ، حديث رقم ٣٥٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٧ ـ باب فضل صلاتى الصبح والعصر ، والمحافظة عليهما ، حديث رقم ٢١٠ (طبعتنا) .

(٢) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه فى ما بين يدىّ من أصول السنّة .

أو هى صفة جماعة وطائفة . و (مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) ظرف مستقر صفة (مُعَقِّبَاتٌ) أو ظرف لغو متعلق بها . و (مِنْ) لابتداء الغاية أو حال من الضمير الذى فى الظرف الواقع خبراً . والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله (وَمِنْ خَلْفِهِ) . ويجوز أن يكون ظرفاً لـ (يَحْفَظُونَهُ) أى : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، أى تحفظ ما قدم وأخر من الأعمال ، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون (يَحْفَظُونَهُ) صفة لـ (مُعَقِّبَاتٌ) أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

تنبيهات :

الأول ـ ما قدمناه فى معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذى له حرس من بين يديه ومن خلفه .

قال الزمخشرىّ : أى يحفظونه فى توهمه وتقديره ، من أمر الله . أى من قضاياه ونوازله . أو على التهكم به .

قال الرازىّ : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهانىّ . والمعنى : أنه يستوى فى علم الله تعالى السرّ والجهر ، والمستخفى بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار . وهم الملوك والأمراء ! فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت اللهَ أمره ، ومن سار نهاراً بالمعقبات ـ وهم الحراس والأعوان الذين يحفظونه ـ لم ينجه حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون . لأنه إذا أبصر هذا ذاك ، فلا بدّ أن يبصر ذاك هذا . فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تخلِّص من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة ! والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره ، عن حفظ الله وعصمته ، ولا يعوّلوا فى دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعد : (وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا . . .) الآية .

الثاني : قدمنا أنّ الضمير في (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) لمن أسرّ أوجهر . . . الخ. وأرجعه بعضهم لله ، وما بعده (لمَنْ) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضمائر من غير داعٍ . وقيل : الضمير (لمن) الأخير ، وقيل : للنبيّ لأنه معلوم من السياق .

الثالث ــ أشار الرازيّ في معنى الآية الأشهر إلى سرّ اختصاص الحفظة ببني آدم ، ما ملخَّصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها ؛ وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب . لأن من آمن ، يعتقد جلالة الملائكة وعلوّ مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنها إذا حضره من يعظّمه من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردعُ أكمل . ا

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ » أي : من العافية والنعمة « حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » أي : من الأعمال الصالحة أو ملكاتها ، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا » أي : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك « فَلَا مَرَدَّ لَهُ » أي : فلا ردّ لقضائه فيهم « وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » أي : يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال . وإيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد غيّروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه ــ أفاده أبو السعود .

تنبيه :

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بآدابه وسننه القويمة ، حلّ بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا ، ويفرّق كلمتهم ، ويوهي قوّتهم ، ويسلط عدوّهم !

وفى حديث قدسيّ عند ابن أبى حاتم : ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحوّلون منها إلى معصية الله ، إلّا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .

ولابن أبى شيبة : ما من قرية ولا أهل بيت، كانوا على ما كرهت من معصيتى ، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى، إلّا تحوّلت لهم عما يكرهون من عذابى، إلى ما يحبون من رحمتى.

وقال القاشانىّ : لابدّ فى تغيير النعم إلى النقم ، من استحقاق جلىٍّ أو خفىٍّ .

وعن بعض السلف : إن الفارة مزّقت خُفِّى . وما أعلم ذلك إلّا بذنب أحدثته ، وإلّا ما سلطها الله علىّ ! وتمثّل بقول الشاعر [١] :

* لو كنتُ من مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إبِلِى *

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلّا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام فى ذلك ، الإمامُ مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى بحث الدين الإسلامىّ فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالَم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرّر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلٰهية التى قدّرها الله فى علمه الأزلىّ . لا يغيّرها شىء من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها . بل ينبغى أن يحيي ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على لسان النبىّ ﷺ [٢] : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ،

---

(١) هذا مطلع الحماسية الأولى . وعجزه :

* بَنُو اللَّقِيطَةِ من ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا *

وقائله بعض شعراء بلعنبر ، واسمه قُرَيْط بن أُنَيْفٍ .

قال المرزوقىّ : ومعنى البيت : لو كنتُ مازنيًّا لم تُغِرْ بنو اللقيطة على إبلى .

(٢) أخرجه البخارىّ فى :١٦ـ كتاب الكسوف ، ٢ ـ باب الصدقة فى الكسوف ، =

فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد. لا يقضى فيه إلّا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها. ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزؤن بها. ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلًا لا مجال معه للخلط بينهما .

فأما النعم التى يمتّعُ الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة والضعف والفقد، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان! وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، إنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ما أعدّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى! وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة ، عبّروا عن إخلاصهم فى التسليم بقوله : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ! فلا غضب زيدٍ ، ولا رضا عمروٍ ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا، ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهمّ إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة . كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم . وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب . والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر . وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر . . !

أما شأن الأمم فليس على ذلك ؛ فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول

= حديث رقم ٥٨٤ ، عن عائشة .

ومسلم فى : ١٠ ـ كتاب الكسوف ، ٢ ـ باب ذكر عذاب القبر فى صلاة الخسوف ، حديث رقم ٨ (طبعتنا) .

إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستثمار الأخوة ، والتعاون على البرّ ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل : ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة[١] (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ! واستبدل[٢] الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون[٣] (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) ! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر[٤] (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا)[٥] . . ! وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه[٦] . اللهم ! إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة . . !

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٥] . (٢) الصواب فى استعمال الاستبدال والتبدّل ، أن تقرن الباء بالمبدّل منه (حاشية الطبعة الرابعة عشرة) . (٣) [١٧ / الإسراء / ١٦] .
(٤) [١٣ / الرعد / ١١] . (٥) [٣٣ / الأحزاب / ٦٢] .
(٦) جاء فى (نيل الأوطار) عند حديث أنس الذى رواه البخارىّ ؛ أن عمر بن الخطاب ، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ... الخ .
قال الشوكانىّ : وقد بيّن الزبير بن بكّار ، فى الأنساب ، صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة والوقت الذى وقع فيه ذلك . فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال ... الخ .
انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ ، الطبعة الثانية) .

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماضٍ في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً ..!

ولما خوّف تعالى العباد بإنزال مالا مردّ له ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

[١٣] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً » أي من الصواعق « وَطَمَعاً » أي بالمطر أن يحيي النبات « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أي بالماء « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » أي يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده ، أي: يضجون بـ (سبحان الله والحمد لله) فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازيًّا للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى دلالته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب لحمده . فيكون الإسناد على حقيقته والتجوّز في التسبيح والتحميد. إذ شبه دلالته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتنزيه اللفظيّ . ودلالته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازيّ :الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص. والتسبيح والتقديس ومايجرى مجراهما، ليس إلّا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث

هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً. وهو معنى قوله تعالى[١] (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ).

« وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » أي : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » أي : فيهلك بها من يشاء. وقوله تعالى « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ » يعني الكفرة المخاطبين في قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ) وقد التفت إلى الغيبة إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم، وتعديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب. كأنه قيل : هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته. ويعقلها من يعقلها من المؤمنين. أو الرعد نفسه والملائكة. ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى، و (هم) أي الكفرة الذين حكيت هَنَاتُهُمْ مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم، يجادلون في شأنه تعالى، بإنكار البعث واستعجال العذاب، استهزاء واقتراح الآيات. فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُم) أفاده أبو السعود.

أي : يريكم ماذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية. وأنتم تجادلون فيه و (الجدال) أشد الخصومة، من (الجدل) بالسكون ـ وهو فتل الحبل ونحوه، لأنه يقوى به وتشتد طاقاته. « وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالُ » أي : والحال أنه شديد المماحلة والمماكرة والمكايدة لأعدائه. يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون، من (مَحَلَه) إذا كاده وعرّضه للهلاك، ومنه (تمحّل لكذا) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه.

تنبيه :

ذكر في العلم الطبيعي : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموّجات السحب

(١) [١٧/ الإسراء/ ٤٤].

ومصادمتها لبعضها : فيحصل فى الهواء اهتزاز قوىّ ، وأما الرعد فهو الصوت الذى يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب ، يطول سماعنا الصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة ، فقد تمت نتائج الصاعقة. فمتى مضت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمِن ضررها . فإن لم يمض بينهما شىء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق فى آن واحد ، أمكن أن يصاب بالصاعقة فى مرورها . وأما سبب انفجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهربائية إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها ، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هى البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعقت : هذا مجمل ما قالوه :

وقد حاول الرازىّ الجمع بين ما روى عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت فى العلم الطبيعىّ بما يدفع المنافاة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ؛ وكذا القول فى الرياح وفى سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالعاقل الإنكار ؟ انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ » أى : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لا لغيره. لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة .

وفيها إيذان بملابستها للحق، واختصاصها به، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال . كما يقال : كلمة الحق .

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعى، فى عدم النفع والجدوى بقوله: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » أى: الأصنام الذين يدعوهم المشركون من دونه تعالى « لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ » أى : من مطلوباتهم « إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » أى : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء لمن مدّ يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظمأه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه . وكذلك ما يدعونه ، جمادٌ لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم ! والغرض نفى الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيهم ، أخيب ما يكون أحد فى سعيه لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آلهتهم ـ حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار فى عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة ، وبقائهم لذلك فى الخسران ـ بحال ماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك فى زيادة ظمأ وشدة خسران! والتشبيه على هذا من المركب التمثيلىّ فى الأصل ، أبرز فى معرض التهكم حيث أثبت

للماء استجابة ، زيادة فى التخسير والتحسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر، أى: لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير فى (هو) للماء و (بالغه) للفم ، وقيل : الأول للباسط والثانى للماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة كما فى قوله[1] :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتى لو أنَّه أرادَ انقباضاً لم تُطِعْهُ أنامِلُهُ

« وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ » أى : عبادتهم والتجاؤهم لآلهتهم « إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى : فى ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذى قهر كل شىء ، بأنه ينقاد لجلاله وإرادته وتصريفه المكونات بأسرها من أهل الملإ الأعلى والأسفل ، طائعين وكارهين لا يقدرون أن يمتنعوا عليه ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تتصرف على مشيئته فى الامتداد والتقلص والفىء

---

(١) رواية البيت هكذا :

. . . . ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لم تُطِعْهُ أنامِلُهُ

انظر ديوان أبى تمام ص ٢٣٢ (طبعة بيروت) .

وص ٢٩ من الجزء الثالث بشرح الخطيب التبريزى (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أجلْ أيها الربعُ الذى خفَّ آهلُهُ لقد أدركتْ فيك النوى ما تحاولُهُ

يمدح بها أمير المؤمنين ، المعتصم بالله .

opeikandi.com

والزوال! وقوله « بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى (فى) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأبيد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو بقال التخصيص لأن امتدادها وتقلّصها فيهما أظهر . هذا ماجرى عليه الأكثر فى معنى (السجود) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسلاً لاستعماله فى لازم معناه ، لأن الانقياد مطلقاً ، لازم للسجود .

وفى (تنوير الاقتباس) : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجعل (طوعاً وكرهاً) نشراً على ترتيب اللف . قال (طوعاً) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و (كرها) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة . ثم قال . ويقال (طوعاً) لأهل الإخلاص و (كرهاً) لأهل النفاق . ثم قال : (وظلالهم) يعنى وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيمانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى (وَكَرْهًا) يخصون السجود به سبحانه. قال تعالى[1] (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى. كما قاله ابن الأنبارىّ . ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها. وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر ، حالة الضرورة والشدة ، بالله سبحانه لا يجدى ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى ، أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] .

وهذه الآية كقوله تعالى[1] (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله[2] : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ...) لآية .

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة ـ كذا فى (اللباب) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما « قُلِ اللَّهُ » أمرٌ بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام ، إشعاراً بتعينه للجواب ، فهو والخصم فى تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ، إيذاناً بأنه أمر لابدّ لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة « قُلْ » أى : إلزاماً لهم وتبكيتاً « أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى : أبعد أن علمتموه ربّ السموات والأرض ، عبدتم من دونه غيره فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم ، سبب الإشراك ؟ أفاده الزمخشرىّ .

« لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى : لا يقدرون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضر عنها . فكيف يستطيعونه لغيرهم ! فإذن عبادتهم محض العبث والسفه ! « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » لمّا بيّن ضلالهم وفساد

---

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

رأيهم فى الحجة المذكورة، بيّن أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير ، والجهل بمثلها كالظلمات ، والعلم بها كالنور ! وكما أن كلّ أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور ، كذلك كل أحدٍ يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها ! « أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : بل أجعلوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله: « خَلَقُوا كَخَلْقِهِ » صفة لـ(شركاء) داخلة فى حكم الإنكار« فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ » أى : خلق الله وخلقهم ؛ والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها . ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر عليه الخالق .

قال الناصر :وفى قوله تعالى : (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) فى سياق الإنكار ، تهكمٌ بهم . لأن غير الله لايخلق خلقاً البتة ، لابطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور . فقد كان يكفى فى الإنكار عليهم ، أن الشركاء التى اتخذوها لاتخلق مطلقاً ، ولكن جاء فى قوله تعالى (كَخَلْقِهِ) تهكم يزيد الإنكار تأكيداً !

« قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » أى : لاخالق غير الله ، ولايستقيم أن يكون له شريك فى الخلق، فلا يكون لهشريك فىالعبادة! «وَهُوَ الْوَاحِدُ» أى . المتوحد بالربوبية «الْقَهَّارُ» الذى لا يغالَب ، وما عداه مربوب ومقهور !

ثم ضرب تعالى مثلين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً » أى مطراً « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » أى :

بمقدار ملئها فى الصغر والكبر ، أى أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى : فحمل ورفع ، من قوة الجيشان ، زبدا عالياً على وجه الماء « وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » أى : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك فى النار « ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » أى : طلب زينة « أَوْ مَتَاعٍ » كالآوانى وآلات الحرب والحرث « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى : مثل زبد السيل . وهو خبثه الذى ينفيه الكير « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » أى مثلهما ، أى : إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام . كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوها ، مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » أى مقذوفاً مرمياً به ، أى : فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شىء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » أى يبقى فيها منتفعاً به « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » أى : يبين أمثال الحق والباطل !

تنبيهات

الأول ـ قدمنا أن هذه الآية مَثل ضربه الله للحق وأهله . والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما . فمثل الحق وأهله بالماء الذى يُنزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذى ينتفعون به فى صوغ الحلىّ منه واتخاذ الأوانى والآلات المختلفة ، وأن ذلك ماكث فى الأرض باقٍ بقاء ظاهرا . يثبت الماء فى مناقعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة ؛ وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن . فإنه ـ وإن علا وارتفع وانتفخ ـ إلا أنه أخيرا يضمحلّ ؛

وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم . إلا أنهـا فى الآخرة تبطل وتضمحلّ وتزول ، ويبقى الحق ظاهرا لا يشوبه شئ من الشبهات . لأنه لا بقاء إلا للنافع . وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . !

الثانى ـ قوله تعالى (بِقَدَرِهَا) صفة (أودية) ، أو متعلق بـ(سالت) أو (أنزل) . وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن علىّ والأشهب وأبو عمرو ، فى رواية ، بسكونها.

الثالث ـ قوله تعالى (احْتَمَلَ) بمعنى حمل ، فالمزيد بمعنى المجرد ـ كذا قيل . ويظهر لى: أن إيثاره عليه لزيادةٍ فى معناه ، وقوة فى مبناه !

الرابع ـ الأودية جمع واد . وهو مفرج بين جبـال أو تلال أو آكام . والإسنـاد إليه مجاز عقلىّ ، كما فى (جرى النهر) .

قال السمين : وإنما نـكّر الأودية وعرّف السيل ، لأن المطر ينزل فى البقاع على المناوبة فيسيل فى بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو (فسالت) ، وهو لو ذكر لـكان نـكرة . فلما أعيد أعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلا فأكرمت الرجل . انتهى .

وأصله لأبى حيان حيث قال: عرّف السيل لأنه عنى به ما فهم من الفعل . والذى يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نـكرة ، إلّا أنه إذا عاد فى الظاهر كان معرفة . كما كان لو صرح به نـكرة . وكذا يضمر إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو :من كذب كان شرًّا له ، أى الـكذب . ولو جاء هنا مضمراً لـكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت). وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعرّف عيْن ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام !

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تـكلف ـ كما قيل ـ لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويعاد عليه ضمير بمعنى آخر.سواء كان حقيقيًّا أو مجازيًّا ؛ وهذا ليس كذلك . لأن الأول

مصدر ، أى حدث فى ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ! ما ذكروه أغلبى لا مختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما فى قول بعضهم :

* أخت الغزالة إشرافاً وملتفتاً *

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله (أودية) وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس ـ قوله تعالى (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ) جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، لضرب مثل آخر . و (زبد) مبتدأ قدم عليه خبره ، و (مِن) فى (ممّا) للابتداء أى : نشأ منه ، وجوز كونها للتبعيض أى : هو بعضه ؛ وردّه أبو السعود بأنه يخلّ بالتمثيل. وقوله (فِي النَّارِ) صفة مؤسسة ؛ لأن الموقد عليه يكون فى النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : فى زيادة النار إشعار بالمبالغة فى الاعتمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسرّ التعبير بالموصول فى قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ . .) الخ الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى ، إذا عبّر عن سبكه بإيقاد النار به، المشعر بأنه كالحطب الخسيس ، وصوّره بحالةٍ هى أحط حالاته . وهذا لا ينافى كونه ضرب مثلًا للحق . لأن مقام الكبرياء يقتضى التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله (ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ) فوفّى كلًّا من المقامين حقه .

السادس ـ قدمنا أن قوله تعالى (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) على حذف مضاف ، أى مثلهما ، وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين الممثل والممثل به. كأن المثل المضروب عين الحق والباطل ! .

السابع : بدأ بالزبد فى البيان فى قوله (فَأَمَّا الزَّبَدُ) وهو متأخر فى الكلام السابق ، لأن فى التقسيم يبدأ بالمؤخر كما فى قوله[١] (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ . . .) الخ وقد راعى الترتيب فيه . ولك أن تقول النكتة فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أوّلا ، وغيره باقٍ متأخر فى الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم ، على ما فصّله الطيبىّ ـ كذا فى (العناية)

الثامن ـ قوله تعالى (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول ، أو بجعل ذلك إشارة إليهما ـ كذا فى أبى السعود .

التاسع ـ أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية فى التنزيل والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مَثَلَيْن ـ نارىّ ومائىّ ـ وهو قوله[٢] (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ . . .) الآية ، ثم قال[٣] (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . .) الآية ؛ وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مَثَلَيْن أحدهما قوله[٤] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ...) الآية ، والسراب إنما يكون فى شدة الحرّ ؛ ولهذا جاء فى (الصحيحين)[٥] : (فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون ؟ أى ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا تَرِدُونَ ؟ فيَرِدُونَ

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩] . (٤) [٢٤ / النور / ٣٩] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٨ ـ باب إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، حديث رقم ٢١ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٠٢ (طبعتنا) .

النار، فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضاً) . ثم قال تعالى فى المثل الآخر [١] (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ . . .) الآية . وفى (الصحيحين)[٢] عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا . وأصابت طائفة منها أخرى. إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ! فذلك مثل من فقُه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى، ونفع به فعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ، فهذا مثل الماء . وفى (مسند الإمام أحمد)[٣] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثلى ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار ، يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلمّ عن النار ! فتغلبونى فَتَقَتَّحَمُونَ فيها . . . وأخرجاه فى (الصحيحين) [٤] أيضاً . فهذا مثل نارىّ . انتهى .

ولمّا بَيَّن سبحانه شأن كلٍّ من الحق والباطل حالًا ومآلًا ، تأثره ببيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً . ترغيبًا وترهيبًا ، بقوله :

---

(١) [٢٤ / النور / ٤٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣ ـ كتاب العلم ، ٢٠ ـ باب فضل من عَلِمَ وعلَّم ، حديث ٦٨.
وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
والحديث رقم ٧٣١٨ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٦ ـ باب الانتهاء عن المعاصى ، حديث رقم ١٦١٠ .
وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ » أى : للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله، والمثوبةُ الحسنى كما قال تعالى[١] : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ)فالحسنى مبتدأ قدم عليه خبره الموصول « وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ » وهم الكفرة « لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ » أى : بما فى الأرض ومثله معه من أصناف الأموال، ليتخلّصوا عما بهم. وفيه من تهويل مايلقاهم ما لا يحيط به البيان ولأجله عدل عن أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوءى ، كما تقتضيه المقابلة « أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ » أى : فى الدار الآخرة ، فيناقشون على الجليل والحقير « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى: المستقر . وفى قوله (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) إشعار بتفسير الحسنى بالجنة ، لانفهامها من مقابلتها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ » أى يصدّق « أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » يعنى القرآن « الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ » أى : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقبيح حاله فعبّر عنه بالأعمى « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْبَابِ » أى : المعقول المبرّأة عن مشايعة الإلف ومتابعة الوهم .

(١) [١٠ / يونس / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٠] ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ » أي : مما كلفهم به « وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ » أي : ماوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد ، وهو تعميم بعد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل ـ أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » أي : من أرحامهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذبّ عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكفّ الأذى عنهم « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » أي : يعملون له أو يخافون وعيده فلا يعصونه فيما أمر « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » أي : يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيء إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى[1] : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) الآية ، أو يتبعون

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦] .

السيئة الحسنة لتمحوها « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » أى: عاقبة الدنيا وهى الجنة. لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للعهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ)

[٢٤] (سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى : آمن ووحّد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السعود : وفى التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

وأصله للزجّاج حيث قال : بيّن تعالى أنّ الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلّا بالأعمال الصالحة .

وقرئ ـ شاذًّا ـ بضم لام (صَلُحَ) . قال الزمخشريّ : والفتح أفصح .

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بيّن تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » أى : عذاب جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؛ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » هذا كقوله تعالى [١] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) . وتنكير (متاع) للتقليل كما فى آية [٢] (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) وقال [٣] : (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » كقولهم [٤] : (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) وتقدم الكلام على هذا غير مرة . وقوله تعالى : « قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ » جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى أنه من باب العناد والاقتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يمهل أحد بعد مجيئها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إنزال هذا الكتاب مِنْ مِثْلِهِ ، صلوات الله عليه ، آية ، فإنه آية الآيات . . ! ولكنهم قوم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧٧] .
(٣) [٨٧ / الأعلى / ١٦ و١٧] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ٥] .

آثروا الضلال على الهدى ، زاغوا عنه فأزاغ الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة، إيجازاً للعلم بها .

قال أبو السعود : (قُلْ : إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ، ويدعه منهمكاً فيه . لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة، والعناد، والغلوّ فى الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءته كل آية . ثم قال : (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) أى: أقبل إلى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابةِ الدخولُ فى نوبة الخير. وإيثار إيرادها فى الصلة على إيراد المشيئة ، كما فى الصلة الأولى ، للتنبيه على الداعى إلى الهداية بل إلى مشيئتها، والإشعارِ بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتوّ والعناد . وإيثار صيغة الماضى للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » بدل من (من أناب) أى : آمنوا بالله ورسوله وكتابه « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ » أى تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً. والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره « أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » أى : بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاءً منه؛ وقدر بعضهم مضافاً . أى بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ؛ ورأى آخرون أن المراد

(بذكر الله) القرآن، لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى [١]: (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ) وقال سبحانه : [٢] : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) لأنه آية بيّنة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها. وهذا المعنى يناسب قوله [٣] : (لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ) أي : هؤلاء ينكرون كونه آية . والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين. قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ » الموصول إما مبتدأ (وطوبى لهم) مبتدأ ثان وخبر فى موضع الخبر الأول ، وإما خبر لمحذوف أى هم ، وإما بدل من (أناب) وجملة (طوبى لهم) دعائية أو خبرية .

قال الزمخشريّ : (طوبى) مصدر من (طاب) كبشرى وزلفى ، ومعنى (طوبى لك) أصبت خيراً وطيباً . ومحلها النصب أو الرفع . كقولك . طيباً لك وطيب لك ، وسلاما لك وسلام لك . والقراءة فى قوله (وحسن مآب) بالرفع والنصب تدلك على محليها ، واللام فى (لهم) للبيان مثلها فى (سقياً لك) ، والواو فى (طوبى) منقلبة عن ياء ، لضمة ما قبلها . قال ثعلب : قرئ طوبًى لهم بالتنوين .

قال الفاسى : ومن نوّن (طوبى) جعله مصدراً بغير ألف كسقيا وزعم بعضهم : أنها كلمة أعجمية . وفى (لسان العرب) عن قتادة ؛ أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ! وأنشد :

طوبى لمن يستبدل الطَّوْدَ بالقُرى ... ورِسْلًا بيَقْطِينِ العراقِ وفُومِهـا

الرسل اللبن ، والطود : الجبل ، والفوم : الخبز والحنطة ـ كذا فى (تاج العروس) .

---

(١) [٢١ / الأنبياء/٥٠] . (٢) [١٥ الحجر/٩] . (٣) [١٠/يونس ٢٠].

[٣٠] (كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

« كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ » أى مضت « مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى: لتبلغهم هذا الوحى العظيم والذكر الحكيم، كما بلّغ من خلا قبلك من المرسلين أممهم . وقوله : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ » جملة حالية أو مستأنفة أى : يكفرون بالبليغ الرحمة، الذى وسعت رحمته كل شىء والعدول إلى المظهر الدال على الرحمة، إشارة إلى أن الإرسال ناشىء منها ، كما قال تعالى(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحى الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم ، ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية(٢) أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم؟ كما فى الصحيح. وقد قال تعالى(٣) (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ) . وفى (صحيح مسلم)(٤) عن ابن عمر مرفوعا : (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن) .

« قُلْ هُوَ » أى : الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته « رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ » أى : توبتى وإنابتى . فإنه لا يستحق ذلك غيره . ثم أشار تعالى إلى عظمة هذا الوحى وتفضيله على ما سواه بقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) حديث يوم الحديبية أخرجه البخارىّ فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ و٨٨٢ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان ، وهو حديث طويل جامع ، فلا يفتك الاطلاع عليه . ففيه غنم كبير . (٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقم ٢ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا » أى قرآنًا مّا « سُيِّرَتْ بِهِ » أى : بإنزاله أو بتلاوته « الْجِبَالُ » أى أذهبت عن مقارّها ، وزعزعت عن أماكنها « أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » أى : شُققت حتى تتصدع وتصير قطعاً « أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ » أى خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف أى: لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية فى الهداية والتذكير، ونهاية فى الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير ، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلىّ ولم يعدوه من قبيل الآيات . فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب (لما آمنوا به) كقوله :(١) (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ . . .) الآية ، وعليه فالقصد بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ)وما بينهما اعتراض . وفيه بعد وتكلف . وأشار بعضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ؛ والتذكير فى (كلم) لتغليب المذكر من الموتى على غيره .

وقوله تعالى « بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً » أى : له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدماً ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته (لو) من معنى النفى ، أى : لو أن قرآناً فعل به ما ذكر لكان هذا القرآن .

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

ولـكن لم يفعل بل فعل ماعليه الشأن الآن . لأن الأمر كله له وحده . وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ماشرح . أى : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا . إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحـكمة ، من غـير أن يكون لأحـد عليه تحكم أو اقتراح . كذا فى أبى السعود .

وقوله تعالى « أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً » أى: أفلم يعلم ويتبيّن كقوله[1] :

أَلَمْ يَيْأَسِ الأقوامُ أَنِّى أنا ابْنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أَرْضِ العَشيرَةِ نائِيَا

وقوله[2] :

أقـول لهم بالشِّعْب إذ يَيْسِرُوننى ... الم تَيْأَسُوا أَنى ابنُ فارسِ زَهْـدَمِ

أى : الم تعلموا ! وييسروننى من إيسار الجزور ، أى يقسموننى ، ويروى : يأسروننى من (الأسر) . أى : أفلم يعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم، لأن الأمر له. ولـكن قضت الحـكمة أن يكون بناء التـكليف على الاختيار .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : من أهل مكة « تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى : بسبب ما صنعوه من الـكفر والتمادى فيه . وعدم بيانه لتهويله أو استهجانه. والقارعة : الداهية التى تقرع وتقلق ، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر

---

(١) انظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

ومعجم غريب القرآن صفحة ٢٣٢ و٢٩١ (طبعتنا) .

(٢) انظر مجاز القرآن،لأبى عبيدة،الصفحة رقم٣٣٢ من الجزء الأول،والبيت رقم٣٨٣.

وانظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم١٥٣ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبى الثانية).

وانظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

والنهب والسلب « أَوْ تَحُلُّ » أى : تلك القارعة « قَرِيباً » أى : مكانا قريبا « مِنْ دَارِهِمْ » فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها « حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ » أى : فتح مكة « إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » أى : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (١) : (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) وفى الآية وجه آخر، وهو حمل (الذين كفروا) على جميع الكفار أى : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، تصيبهم القوارع فى الدنيا أو تصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى (٢) : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله (٣) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى : أمهلتهم وتركتهم ملاوة من الزمن، فى أمن ودَعَةٍ ، كما يملى للبهيمة فى المرعى « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى : عقابى إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح ، على طريقة الاستهزاء به ، ووعيد لهم .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .
(٣) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

« أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شرّ . فهو مجاز ، لأن القائم على الشيء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه ـ إذا علمه فلم يخف عليه شىء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك ـ وإنما حذف اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله: « قُلْ سَمُّوهُمْ » تبكيت لهم إثر تبكيت، أى: سمّوهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لاحقيقة لهم ! أوصفوهم وانظروا هل لهم مايستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ؟

وقال الرازىّ : إنما يقال ذلك فى الأمر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة إلى ألا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمّه إن شئت ، يعنى : أنه أخسّ من يسمّى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سمّوهم بالآلهة ، على سبيل التهديد، والمعنى : سواء سميتموهم بهذا الاسم أولم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لاتستحق أن يلتفت العاقل إليها .

« أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » أى : بشركاء لايعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شىء مما كان ومما يكون ، فهم لاحقيقة لهم . فهو نفى لهم بنفى لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفى أنهم ليسوا بشركاء وأن الله لايعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن

مجىء النفى على هذا السَنَن المتلوّ بديعٌ لا تكتنفه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلّى بهذا التصريف البديع لكان :وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء. فلم يكن بهذا الموقع الذى اقتضته التلاوة .

وقوله تعالى « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ » أى : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنجىّ كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى [1] : (ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) . (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا)[2] وعن الضحاك : إنّ الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله [3] :

وذلك عارٌ يا ابن رَيْطَةَ ظَاهِرُ .

تنبيه :

قال الزمخشرىّ : هذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التى ورد عليها ، منادٍ على نفسه بلسان طاق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ) لما كان كافياً فى هدم قاعدة الإشراك مع السابق واللاحق وماضمن من زيادات النكت، وكان إبطالًا من طريق حق ، مذيلًا بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يتوهم فيه ذلك أدنى توهم ، وروعى فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلًا عن المسمى على الكناية الإيمائية . ثم بولغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على الكناية التلويحية استدلالًا لا بنفى العلم عن نفى المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئهال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السرّ والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفى جعل اتخاذهم شركا.

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٠] .

(٣) لم أعرف تمام البيت ، ولا مَن هو قائله ، ولم أهتد إليه فيما بين يدىّ من الكتب. فمن داره فليثبته هنا مشكورًا مأجورًا .

ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباءً له تعالى ، نكتة بل نكت سرية . ثم أضرب عن ذلك وقيل : قد بين الشمس لذى عينين وماتلك التسمية إلّا بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ .

فمن تأمل حقّ التأمّل ، اعترف بأنه كلام خالق القُوَى والقُدَر، الذى تقف دون أستار أسراره أفهام البشر . . . !

وقوله تعالى : « بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » إضراب عن الاحتجاج عليهم. كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم . لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ، فلا ينتفعون بهذه الدلائل .

وقوله تعالى :

« وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ » أى : عن سبيل الله ، وقرئ : بفتح الصاد أى : صدوا الناسَ « وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ » أى : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ،أويخذله « فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ » أى : من أحد يهديه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ)

« لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »وهو ما نالهم على أيدى المؤمنين ، أو مافيه من عذاب الحيرة والضِلّة . فإنّ نفس غير المؤمنين فى نكد مستمر وداءٍ دوىّ لا برء له إلّا الإيمان . كما فصل فى موضع آخر « وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ » أى : من عذاب الدنيا كمّاً وكيفاً « وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ » أى : حافظ يعصمهم من عذابه .

---

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى عن الكفر والمعاصى « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ».

فى الآية وجوه من الإعراب :

(الأول) : أن (مثل) مبتدأ خبره محذوف ، أى: فيما يقص ويتلى عليكم صفة الجنة ، وجملة (تجرى) مفسرة أو مستأنفة استئنافاً بيانيا أو حال من ضمير (وعد) أى : وعدها مقدرا جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع مافيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل . وقُدِّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو لئلا يفصل به بينه وبين مايفسره، أو ما هو كالمفسّر له .

(الثانى) : أن خبره (تجرى) ـ على طريقة قولك : صفة زيد أسمر ـ قيل : هو غير مستقيم معنى ، لأنه يقتضى أن الأنهار فى صفة الجنة . وهى فيها ، لافى صفتها . مع تأنيث الضمير العائد على المثل حملاً على المعنى .

(الثالث) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أى : مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وقوله (وظلها) مبتدأ محذوف الخبر أى : كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٦] (وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ)

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » لأنه يحصل لهم به من المعانى والدلائل وكشف الشبهات مالم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عنى بهم الذين آمنوا بالنبيّ ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ،فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيته التى لا يمترى فيها ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التى لا تحصى كما قال تعالى(١) : (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) . « وَمِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى بقية أهل الكتاب والمشركين « مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ » وهو ما يخالف معتقدهم، وجوّز أن يراد (بالموصول) من يفرح به منهم لمجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا. و بـ(الأحزاب) المشركون،خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد .ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو»أى: لا إلى غيره « وَإِلَيْهِ مَآبِ » أى : مرجعى للجزاء ، لا إلى غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٧] (وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا» أى: حاكماً بالحق،أو حكمة عربيّة «وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

---

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] .

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِـنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ » أى لئن تابعتهم على دين، ماهو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلّا فـكان رسول الله ﷺ من شدة الشـكيمة بمكان ـ كذا فى (الـكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » أى : مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم وهوردٌّ لقولهم: لو كان نبيًّا لـكان من جنس الملائكة كما قالوا[١] : (مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ، وإعلامٌ ، بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز فى حقهم لِمَ لا يجوز فى حقه ؟ وقد قال تعالى له[٢] : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ). « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » أى : ما صح له ولا استقام ولم يكن فى وسعه أن يأتى بما يقترح عليه ، إلا بإرادته تعالى فى وقته ، لأن الآيات معينة بإزاء الأوقات التى تحدث فيها ، من غير تغيرٍ وتبدلٍ وتقدمٍ وتأخرٍ . فأمرها منوط بمشيئته تعالى ، المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الـكائنات « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أى لـكل وقت من الأوقات أمر مكتوب ، مقدّر معيّن أو مفروض فى ذلك الوقت على الخلق حسبما تقتضيه الحـكمة. فالشرائع معينة عندالله بحسب الأوقات، فى كل وقت يأتى ، بما هو صلاح ذلك الوقت ، رسولٌ من عنده ، وكذا جميع الحوادث من الآيات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [١٨ / الـكهف / ١١٠] .

وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره . وفيه ردّ لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

« يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ » أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت « وَيُثْبِتُ » أى بَدَلَهُ ما فيه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ « وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى : أصله .

قال الرازىّ : العرب تسمى كلّ ما يجرى مجرى الأصل للشىء أُمًّا له ، ومنه أم الرأس للدماغ وام القرى لمكة . وكل مدينة فهى أمّ لما حولها من القرى . فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلًا لجميع الكتب . روى علىّ بن أبى طلحة[٢] عن ابن عباس فى الآية يقول : يبدل الله مايشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) يقول: وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ . وما يبدل وما يثبت . كل ذلك فى كتاب . وعن قتادة : أن هذه الآية كقوله تعالى (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...) الآية .

تنبيه :

تمسّك جماعة بظاهر قوله تعالى : (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) فقالوا : إنها عامة فى كل شىء كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : يمحو الله من الرزق ويزيد فيه . وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازىّ : هو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة ١٦٩ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية).

أشار بذلك إلى آثار أخرجها ابن جرير[(١)] عن عمر وابن مسعود . وليس فى الصحيح شىء منها .

ظَهَرَ لى* فى دمّر فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ :

إنّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلبٍ ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ، فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظنّ ظانّ أنه يستدل بها فى بحثٍ آخر ، وقد يؤكده مايراه من إطباق كثيرٍ من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذْ لك مثلاً قوله تعالى (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) فكم ترى من يستدل بها على العلم المعلّق ، ومحو ما فى اللوح الذى يسمونه (لوح المحو والإثبات) ويوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمأنًّا .

مع أنّ هذه الآية ، لو تمعّن فيها القارئ ، لعلم أنها فى معنى غير مايتوهمون . وذلك أنهم كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ ، فى أوائل البعثة ، أن يأتى بآية كآية موسى وعيسى . توهماً أن ذلك هو أقصى مايدل على نبوة النبىّ فى كل زمان ومكان . فأعلمهم الله تعالى أنّ دور تلك الآيات الحسّيّة انقضى دورها وذهب عصرها . وقد استعدّ البشر للتنبّه إلى الآية العقلية ، وهى آية الاعتبار والتبصّر . وإن تلك الآيات محيت كما محى عصرها . وقد أثبت تعالى غيرها ممّا هو أجلى وأوضح وأدلّ على الدعوة . وهو قوله تعالى قبلها : (وَمَا كَانَ

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، عن أثر عمر ، بالصفحة رقم ١٦٧ و١٦٨ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وانظر كذلك ، عن أثر ابن مسعود ، بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

* نقلت من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله .

لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)...

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

« وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ » أى: من إنزال العذاب فى حياتك « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى : قبل ذلك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى : تبليغ الوحى « وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » أى : حسابهم وجزاؤهم . قال أبو حيّان: جواب الشرط الأول (فذلك شافيك) والثانى (فلا لوم عليك) وقوله تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ...) الخ دليل عليهما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى: أرض الكفرة . ننقصها عليهم بإظهار دين الإسلام فى أطراف ممالكهم .

قال ابن عباس: أى : أو لم يروا أنا نفتح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ يعنى أن انتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينجز وعده ، ونظيره قوله تعالى(١) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

وقوله(١) : (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ ...) الآية .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . يعنى لم يؤخر عذابهم لإهمالهم ، بل لوقته المقدر ، أو ما ترى نقص ما فى أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام . ولم يخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلًا وتنبيهاً عن سِنةِ الغفلة . ومعنى (نأتى الأرض) يأتيها أمرنا وعذابنا . انتهى .

وقيل : ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم. فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبيه :

يذكرون ـ ها هنا ـ رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهريّ حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طَرَف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق(٢) :

وَاسْأَلْ بِنَا وَبِكُمْ إذا وَرَدَتْ مِنًى ... أَطْرَافُ كُلِّ قَبِيلَةٍ، مَنْ يَتبَعُ

يريد أشراف كل قبيلة . فمعنى الآية : أو لم يروا ما يحدث فى الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة، وذل بعد عزّ، ونقص بعد كمال! وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً ، فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفاك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلا لخطب موت العلماء بسبب

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٢) فى الديوان (صفحة ٥٢٦) من يسمعُ عوضاً عن (من يتبع) .

ومطلع القصيدة :

بَيِّنْ إذا وردتْ عليك مُجَاشِعٌ ... أو نهشلٌ تَلمَاتِكُمْ ما تَصْنَعُ ؟

أنهم أركان الأرض وصلاحها وكمالها وعمرانها ، فموتهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد ابن غزال :

الأرض تحيي إذا ما عاش عالمها   متى يمتْ عالم منها يمتْ طَرَفُ
كالأرض تحيي إذا ما الغيثُ حلّ بها   وإنْ أبَى عَادَ فى أكْنَافِهَا التَّلَفُ

ولذا قال الأزهرىّ كما فى (لسان العرب) : أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف ، (وننقصها من أطرافها) أى نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا مَنْ فسر (نقصها من أطرافها) فتوحَ الأرضين . وأما من جعل (نقصها من أطرافها) موتَ علمائها فهو من غير هذا، قال: والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى « وَاللهُ يَحْكُمُ » أى : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالعز والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر ، بالإشارة إلى العلة ، ما لا يخفى . وهى جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : « لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ » اعتراض فى اعتراض . لبيان علوّ شأن حكمه تعالى . وقيل : نصب على الحالية كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه ــ كما تقول : جاء زيد لا عمامة على رأسه ، أى حاسراً . و (المعقب) من يكرّ على الشيء فيبطله ، وحقيقته من يعقبه ويقفّيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

« وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل والأسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكروه بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله « فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً » إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطرلهم على بال ، كما يومى إليه قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ » أى فيوفيها جزاءها المعدّ لها على ما كسبت من فنون المعاصى التى منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » أى العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى[1] : (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ...) الآية.

القول فى تأويل تعالى :

[٤٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » فإنه أظهر على رسالتى ، من الحجج القاطعة والبينات الساطعة . ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جعل هذا شهادة (وهو فعل والشهادة قول) على سبيل الاستعارة ، لأنه يغنى عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعمّ من القول والفعل . على

---

(١) [٢٧ / النمل / ٥٠ ـ ٥٢] .

أن المراد من تلك الحجج هى آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهى كلامه تعالى ، وقد قال تعالى(١) : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » أى ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبىّ ﷺ ونعته فى كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال تعالى(٢) : (الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ) وقال تعالى(٣) : (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ) .

ويروى عن مجاهد أنه عنى بـ (مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) عبد الله بن سلام . ونوقش بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المكية ربما وجد فيه مدنىّ وبالعكس ، وكأن هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهانىّ فى (دلائل النبوة) : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه ، ثم آب إلى المدينة وكتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم .

تم الجزء التاسع ، ويليه إن شاء الله الجزء العاشر وفيه تفسير :
(١٤ـ سورة إبراهيم و ١٥ـ سورة الحجر و ١٦ ـ سورة النحل و١٧ـ سورة الإسراء)

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧] .